كورونا: بين هشاشة الحضارة المعاصرة وفقه الأزمة

د/ أحمد علي سليمان(*)

ليسمح لي القارئ الكريم أن أنبه على نقطة جوهرية تتعلق بمنهجية معالجة هذا الموضوع، وهي أننا نعيش الآن في قلب الأزمة، لسنا في بدايتها، ولم نصل بعد إلى نهايتها، ولا نعلم كيف ستئول الأمور، وحتى هذه اللحظة نعيش لُغزًا محيرًا ولا نعرف على وجه الدقة والحقيقة كنه هذا الفيروس (كورونا - كوفيد - ١٩)[1]

هل هو فيروس طبيعي أم أنه مخلق؟ أم أنه حمض نووي؟ أم أن ما يحدث حربًا جرثومية بلغت بفاعلها شأو اللاإنسانية؟ وكيف انتشر الفيروس في العالم كله بسرعة البرق، ليتحول إلى جائحة ؟ وهل ما حدث تم بقصد أم بدون قصد؟ وهل يمكن أن يندرج تحت نظرية المؤامرة؟ وهل حدث ما لم يُتوقع وانقلب السحر على الساحر؟ أم أنها حرب من نوع آخر؛ لاستعراض القوة بغرور بين القوى الكبار لتركيع أحد الأطراف؟ وهل تم ذلك نتيجة الإخلال بالتوازن البيئي وزيادة كهربية الأرض نتيجة الموجات (الكهرومغناطيسية) الناجمة عن استشراء ذبذبات الأقمار الاصطناعية وغيرها؟ أم أن ذلك حرب اقتصادية، تستهدف القضاء على اقتصاديات صامدة وصاعدة لسلم قمة الاقتصاد العالمي؟ أم أنها حرب من أجل تحقيق مكاسب مالية تفوق الوصف والخيال بعد إظهار دواء يوقف الفيروس أو إنتاج مصل واقٍ يمنعه؟ وماذا لو انكشف المستور بأن دولة (س) أو (ص) هي مَن نشَّطت هذا الفيروس الخطير ونشرته قاصدة؟ وهل يستطيع العالم عندئذ محاسبتها؟ هذه أسئلة وغيرها كثير.

لا أملك ولا يملك أحد على ظهر البسيطة الإجابة عن هذه الأسئلة ولا عن غيرها، ولا يعرف أحد الحقيقة المطلقة إلا الله تعالى.

ولكن ثقافتي الدينية تدفعني إلى تقرير أن ما يحدث له حكمة بالغة، على وفق إرادة الله، وأن هذا الفيروس لا يسير أبدًا وفق هواه؛ بل هو أحد مخلوقات الله، يُسيِّره الله حيث يشاء، إمضاء لسنّة الابتلاء.

ماهية الفيروسات:

وفي محاضرة مهمة له عن فيروس الكورونا يقول العالم الأمريكي الدكتور توماس كووان: «الفيروسات ببساطة عبارة عن إفرازات للخلية

(*) عضو المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، لجنة التثقيف العام.

(١) كلمة كورونا تعني باللاتينية: التاج.

المسممة، وهي قطع من الحمض النووي RNA أو DNA مع بروتينات أخرى تنطلق خارج الخلية. وتحدث الفيروسات عندما تتسمم الخلية فالخلايا عندما تتسمم بفعل التلوث تحاول تطهير نفسها بطرد الركام الذي نسميه الفيروسات»[٢].

فمن الذي أحدث هذا التلوث الرهيب وأخل بالتوازن البيئي والكوني، وتسبب في إحداث التغييرات والاختلالات؟ ومن تسبب في زيادة كهربية الأرض؟ على فرض صحة هذه الفرضية التي يعزوا بعض العلماء أنها السبب في إنهاك الأحياء وجعلها فريسة للمرض-التي تحتاج دراسات علمية من المتخصصين- ومن الذي اعتدى على الأكسجين الذي تسبب تلوثه في إرهاق الأحياء؟ إنه الإنسان المخل بما استخلفه الله لعمارة الأرض!!

فهل جاء هذا الفيروس ليصحح مسار هؤلاء الذين أفرطوا في الاعتداء على فطرة الله وعلى كونه الفسيح، وأسهموا في الإخلال بتوازنه الفيزيائي والبيئي والاجتماعي والقيمي؟ ولماذا وجدنا دولًا هجم عليها الفيروس بشراسة، ودولًا أخرى شملها لطف الله؟

هزة عنيفة أحدثتها الجائحة:

إن الأزمة التي نعيشها حاليًّا بانتشار هذا الوباء الخطير والتي أحدثت شللًا تامًا في جُلِّ أنشطة الحياة في العالم، وتخطت الحدود والأقاليم والأوطان والفوارق العرقية والطبقية والاجتماعية والدينية تجعلني أوقن تمام اليقين أنها ابتلاء إلهي للبشرية جمعاء؛ من أجل أن تُعيد حساباتها الفكرية والإيمانية.

يا له من مخلوق ضعيف استطاع إيقاف عجلة الحياة في أكبر دول العالم وأعظمها وأقواها، وأرعب العالم، بل وأدخل الناس في بيوتهم كالنمل في بيات قد يطول ولا يعلم أحد غير الله متى ستكون نهايته؛ لتخلو شوارع معظم دول العالم، بل وتفرض الدول حظر التجوال خوفًا من هذا الكائن الدقيق، أين التقدم والرسوخ في العلم؟! خسائر مجمّعة مباشرة وغير مباشرة تتجاوز الخيال، توقف المساجد والكنائس والمعابد، والتجارة العالمية والاحتفالات والاجتماعات والمقاهي والمطاعم.، يا لها من طامة كبرى وليس لها من دون الله كاشفة!!

والجليل في الأمر أن هذه الجائحة حدثت بغتة؛ إذ لم تفكر البشرية من قبل في أن تمر عليها أيام مثل هذه، تقف الآن عاجزة حائرة تضرب كفًّا على كفٍ من جلال المشهد الذي يكاد يوحي لنا جميعًا أننا في كابوس طال أمده وننتظر بزوغ الفجر والنور للذهاب إلى أعمالنا.

بل إن أكثر الدول تقدمًا تطلب المعونة والإمدادات؛ بل ظهر هؤلاء على حقيقتهم لينكشف الغرور والخداع، وضعف الأنظمة الصحية وتهاويها وتهالكها، وعدم قدرتها على مواجهة الوباء، وهشاشة الحضارة المعاصرة تتجلى هنا حيث تعاني (الدول العظمى) من نقص حاد في أجهزة التنفس الاصطناعي، وثمن الجهاز حوالي عشرة آلاف دولار، بينما ثمن صاروخ كروز تبلغ قيمته ١,٧ مليون دولار!! وتظهر الأنظمة الغربية في الدول العظمى على حقيقتها وينكشف المستور، «دولة (س)

(٢) محاضرة للدكتور توماس كووان، ألقاها في مدينة نكسون بولاية أريزونا الأمريكية، يوم ١٢ مارس ٢٠٢٠م. www.youtube.com/watch?v=zFN٥LUaqxOA

تسرق شحنة إمدادات طبية كانت متجهة إلى دولة (ص)، ودولة (ع) تمارس القرصنة على شاحنة مواد طبية كانت متجهة لدولة (ت)...» وانتشرت هذه الظاهرة بشكل لا يصدقه العقل.

المفارقة أن دولة فقيرة كالصومال ما كان الناس يحبون الذهاب إليها، والآن ونظرا، لأن الفيروس لم يصلها حتى الآن، فإن البعثات الأجنبية لا تريد مغادرتها البتة، يا الله!! ويا لها من حكمة بالغة.

نعم لقد ضاقت الأرض بما رحبت على الناس في كل مكان، وضاقت السماء باتساعها وحطت الطائرات على الأرض في مشهد لا مثيل في التاريخ، وضاقت حتى البحار على بني الإنسان، واستقر الناس في بيوتهم ينتظرون مصيرًا مجهولًا لا يعلمه إلا الله! يحضرني هنا قول الله تعالى:

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْ﴾ (التوبة: ١١٨)

عندئذ يبدأ الإنسان في التفكير في خالقه فعنده الملجأ وعنده النجاة، وهذا ما يفسر لجوء كثير من رؤساء الدول العظمى وغيرهم إلى المؤسسات الدينية وطلب الدعاء من أهلها، بل والسماح بتلاوة القرآن وانطلاق الآذان في أجواء مناطق ما كان من السهل أبدًا أن يحدث فيها ذلك؛ حتى يرفع الله عنهم الغمة، بعد أن أمعنوا في الاستهتار بتعاليم الله وعزلها عن مسرح الحياة، بل وصل بهم الحد إلى تحدي رب العزة وإنكار وجوده جل وعلا!!

هشاشة الحضارة المعاصرة وجنوحها:

لقد فضح فيروس كورونا حضارة العصر، وكسر كبرياءها وغرورها الأجوف، وأبان هشاشتها، وأكذوبة الدول العظمى والنظام العالمي السائد منذ نهاية الحرب الباردة وأنانيته وخداعه وغروره وتهاويه إلى هوة سحيقة بسبب البعد عن الله.

عندما اغتر الإنسان بما وصل إليه من علوم ومخترعات وصل من خلالها إلى الكواكب الأخرى، وتحكم في كثير من أمور الحياة، وظن أنه قادر على كل شيء، وتغافل عن مدبر هذا الكون، إلحاد وإنكار لله، استعمار للشعوب، وسلب خيراتها، وإذلال أهلها. وصناعة الموت، والتنافس المحموم في إبداع أسلحة الدمار الشامل للبشرية، ناهيك عن الاعتداء على الفطرة السوية وتجلت مظاهرها في أمور كثيرة منها زواج المثلين، السخرية بالأنبياء والمرسلين، صناعة الفتن بين الشعوب بل بين طوائف الوطن الواحد، وتأليب الناس على حكامهم، والكيل بمكاييل متعددة تحكمها المصالح والانتهازية والإمبريالية والأنانية، وغض الطرف عن المجازر التي راح ضحيتها عشرات الآلف من المستضعفين وفي مقدمتهم المسلمين، والاعتداء الصارخ على شتى مفردات البيئة والطبيعة والكون، وتغول الرأسمالية، وهشاشة القيم وجنوحها صوب المصلحة والأنانية والتفاهة، والشذوذ وتغيير خلق الله، فأراد الله تعالى أن يعيد البشرية إلى سيرتها الأولى وإلى فطرتها السوية، ويؤدبها ليصحح مسارها، فكان التأديب بجند من جنود الله الصغير جدًّا، تحقيقًا لسُنَّة الابتلاء.

سنة الابتلاء ماضية:

الابتلاء سنة كونية من سنن الله تعالى في خلقه وكونه، وهو من طبيعة العيش في هذه الحياة، يأتي للتمحيص والفرز والاختبار، ورفع الدرجات، وتكفير السيئات، ويأتي أيضا

لتصحيح المسار، ولِحِكم كثيرة يعلمها الله، والقرآن الكريم زاخر بكثير من الآيات التي تتحدث عن ابتلاء الله للإنسان بالخوف والجوع والأمراض والجوائح الطبيعية وغيرها، ومن هذه الآيات الكريمة قول الله -تعالى-: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ ۗ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ (البقرة: ١٥٥).

ولقد وقفت طويلا أمام هذه الآيات، لاستبين سموق بلاغتها واستوقفني جلال قوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ﴾، وقوله: ﴿وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنفُسِ وَالثَّمَرَاتِ﴾ وتساءلت: لماذا عبَّر القرآن بكلمة ﴿بِشَيْءٍ﴾ بالذات عند الخوف والجوع، وعبَّر بكلمة ﴿وَنَقْصٍ﴾ عند الأموال والأنفس والثمرات؟ يقول د/ غانم السعيد: وهنا تتجلى عظمة رحمة الله بعباده، فهو سبحانه مَن خلق النفوس وسواها، ويعلم حدود طاقاتها في تحمل الابتلاءات؛ لذلك عندما تحدث عن الابتلاء بالخوف والجوع، وهو أشد أنواع الابتلاءات فقد خفَّفه عن عباده فجعله شيئًا يسيرًا جدًّا، قال تعالى: ﴿بِشَيْءٍ﴾ والشيء هو الأمر القليل جدًّا الذي لا يكاد يُذكر، ولما تحدث عن الابتلاء في الأموال والأنفس والثمرات وهو مما يمكن أن تتحمله نفس المبتلى فقال: ﴿وَنَقْصٍ﴾ والنقص أكثر بكثير من ﴿بِشَيْءٍ﴾[٣].

ولقد قاسمت السُّنةُ النبويةُ القرآنَ الكريمَ في الحديث عن الابتلاء فعن أبي هريرة -رضي الله عنه- قال: قال النبي ﷺ: «لا يزالُ البلاءُ بالمؤمنِ أو المؤمنةِ في جسده وفي مالِه وفي ولده حتى يلقى اللهَ وما عليه من خطيئةٍ»[٤]، فالبلاء إذن لا بد من أن ينزل بالعبد: مؤمنًا كان أو غير مؤمن؛ فأما بلاء المؤمن إن صبر عليه، فهو خير له ورفعة لدرجته وتكفير لخطاياه وذنوبه، وحملٌ له على محاسبة نفسه، وتنبيهٌ له من ربه إن كان في غفلة.

ومن حِكَمِ الابتلاء أنه جل وعلا جعله ليبين للمؤمنين وللناس حقيقة الدنيا الفانية، وأنها دار غربة وفناء يتزود فيها المؤمن من الطاعات، ومزرعة يزرع ما يسره حصاده في يوم المعاد، وأن الدنيا متحولة متبدلة؛ حيُّها يموت، وصحيحها يمرض، وغنيها يفتقر، وفقيرها يغتني، وملكها يزول، وحالها إلى محال؛ فالمؤمن الذي نظر إلى الدنيا بعين الحقيقة، لا يطمع إلا فيما عند الله تعالى، وأما غير المؤمن فابتلاؤه عقوبة وردع له عن ظلمه وجنوحه وشذوذه، وقد يكون تنبيهًا له من ربه؛ ليحمله على البحث ومن ثم تتحقق له الهداية[٥]، فالأمم حينما تضِلُّ وتنحرف، يُرسل الله لها جنودًا من جنوده وآيات من آياته، قد تبدو في الظاهر قاسية، ولكنها في الباطن خيرٌ ورحمة من الله بنا وتنبيهًا لنا ليدفعنا دفعًا إلى بابه، وقد يكون عقوبةً للإنسان على انحرافه الخطير وغروره وكبريائه وجنوحه عن الفطرة السوية.

حِكَمٌ إلهية تترا لعل من بينها أن الإنسان حينما تمرد على القوانين الإلهية، والأعراف

(٣) د. غانم السعيد: تأملات في فقة الابتلاء، كنوز عربية.

(٤) أخرجه الإمام أحمد في مسنده، من حديث ابي هريرة -رضي الله عنه- برقم: ٧٨٥٩.

(٥) إبراهيم جاسم: من حكم الابتلاء، شبكة الألوكة، ٢٠ يناير ٢٠٢٠م.

الأخلاقية، أرسل الله تعالى فيروسًا لا يرى بالعين المجردة؛ ليضبط حركة الإنسان وغروره في هذه الحياة، وأن ما نشهده الآن يعد فعلًا من أفعال التحدي؛ للفت النظر، وهو رحمة من الله تعالى للناس حتى ينتهوا، وتعود البشرية إلى مراشدها.

يقول أ/ عماد الدين أديب: «إن جبروت العقل البشرى، وطغيان العقل العلمي المنزوع منه الإيمان، يعطيان إنسان اليوم حالة مخيفة من الزهو والكبر والغرور بالنفس، مما يجعله يشعر أنه عابر لإرادة الخالق الواحد الأحد المدبر المطلق لهذا الكون، يدفعه غروره إلى الاعتداء على السنن الإلهية، والبحث عن إطالة العمر ومحاربة الشيخوخة والبحث عن الأبدية عبر التحكم الجيني أو زراعة الأعضاء، إلى حد الإقدام على صناعة إنسان من الألف إلى الياء، ووصل العلم والعلماء إلى وضع آلات وشرائح إلكترونية في الجسم البشرى، كان الإنسان يبيع ويشترى، يتحرك بحرية ويغزو الأرض من أقصاها إلى أقصاها، يبيع سلعًا استفزازية تبدأ من أطواق مرصعة بالماس للكلاب إلى جهاز موبايل من البلاتين والأحجار الكريمة، وظل يعتقد الإنسان -الذي حاد عن الفطرة- أنه ملك الأرض وما عليها، ويستعد لبناء مدن في كواكب الفضاء، هذا كله أوصلنا إلى تلك الحالة الخطرة التي يتجرأ فيها العلم على قدرة الخالق، ويعتقد العالم أنه بديل -والعياذ بالله- للإله جل شأنه، وهكذا حينما تصاب النفس البشرية بالكبر، ويتخيل الإنسان أنه سيد هذا الكون ممسكًا بكل مفاتيحه، ولديه كل الإجابات على شتى ألغازه ويشعر أنه ملك المعرفة المطلقة، وأنه أصبح قادرًا على فعل كل شيء وأي شيء وفي أي مكان، وأن إرادته مطلقة لا حدود لها، جاءته رسالة واضحة وحاسمة من السماء: «حياتك قد تكون في خطر من مجرد بعض رشقات رذاذ العطاس، أو لمسة على سطح ملوث» الرسالة: أيها الإنسان اعرف حقيقة حجمك ومكانك ومكانتك في ضفاف هذا الكون العظيم»[٦].

ويحضرني في هذا المقام قول الحق تبارك وتعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلۡأَرۡضُ زُخۡرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتۡ وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ أَتَىٰهَآ أَمۡرُنَا لَيۡلًا أَوۡ نَهَارٗا فَجَعَلۡنَٰهَا حَصِيدٗا كَأَن لَّمۡ تَغۡنَ بِٱلۡأَمۡسِ﴾ (يونس: ٢٤)

لقد شهد التاريخ البشري صورًا كثيرة لهذا الابتلاء وهذه الجوائح، غير أن ما استوقفني وشدَّ اهتمامي جدًا هي الآية السالفة، وأرى أنها مناسبة لما نحن فيه ونعانيه الآن. يقول الدكتور محمد الزيادي: «إن عالم اليوم قد وصل إلى درجة من التطور والتقدم أوصل الحياة إلى أن تأخذ زخرفها أكثر من أي وقت مضي، وأن تتزين بكل ما يطلبه الإنسان من سعادة ومتعة وهذا أمر طبيعي، ولكن غير الطبيعي، هو ما أشارت إليه الآية: ﴿وَظَنَّ أَهۡلُهَآ أَنَّهُمۡ قَٰدِرُونَ عَلَيۡهَآ﴾ فإذا ظنَّ الإنسان أنه قادر على التحكم في الحياة، وأنه قادر على تحدي القدرة الإلهية، وقادر على صنع الحياة أو تدميرها، قادر على الخلق والإفناء، فإن ذلك خروج بالإنسان إلى فضاء خارج عن قدرته،

(٦) عماد الدين أديب: «كلا إن الإنسان ليطغى»، صحيفة الوطن: الأحد ١٥ مارس ٢٠٢٠م

وخارج عن إرادة الله تعالى؛ وهذا يستدعي عقابًا إلهيًّا قد يكون جزئيًّا مؤقتًا، وقد يكون دائمًا؛ فالجزئي المؤقت هو ما يُشاهد الآن من تعطل جميع صور الحياة البشرية، والذي قد يزول بين لحظة وأخرى كما هو متوقع، وقد يكون العقاب أبديًّا وهو انتهاء الحياة البشرية بصورةٍ كاملةٍ والذي نسميه بالقيامة. وعلى كل حال فإن ما يجري مؤشر كبير على انحراف خطير انحدرت إليه البشرية، وهو فرصة كبيرة أمام العلماء والمفكرين والباحثين للتفكير والتأمل إن أمد الله في أعمارهم»(٧).

الرسائل المدوية التي أطلقها الفيروس:

وليس يمتنع أن يكون هذا الإخضاع الإلهي للبشرية كلها بهذا الفيروس الخفي عن أعينها مثالًا لقهر عاد الثانية والثالثة وما بعد ذلك، وصدق الله القائل: ﴿هَٰذَا نَذِيرٌ مِّنَ ٱلنُّذُرِ ٱلْأُولَىٰٓ﴾ (النجم:٥٦).

لو قدر للفيروس أن يتحدث لربما كان لسان حاله أن يقول: أيتها البشرية التي جنحت بعيدًا بعيدًا عن خالقها، أنا من جئتكم بأمر الله على عجل وانتشرت في عجل وبلا إنذار مسبق، لأذكركم أن باب التوبة يقفل بدون إنذار وأن ملك الموت يأتي فجأة وأن الموت قادم، أنا لا أحتاج إلى تأشيرات دخول لبلدانكم كلا فأنا لا أعرف الحدود بين الشعوب ولا أفرق بين الناس، إنني عبد مأمور، أنا من أوقفت تعذيب المستضعفين في كل مكان، أنا مَن جعلتُ الناس يعترفون أنهم ضعفاء أمام قدرة الله، أنا مَن جعلتُ الملاحدة يوقنون بوجود الله تعالى؟ هل تعلمون أنني مَن أخليتُ الشوارع وأرحت السيارات والمركبات والمحركات ونزلت بحوادث الطرق إلى أدنى درجة؟ وأنا من أرحت السماء من عبثكم، وكذا البحار، أنا من تسببت في تراجع الفواحش، وتراجع التلوث في العالم بأمره تعالى؟ أنا من جعلت العصاة يفكرون في الله وفي رد المظالم؟ أنا مَن أعدتُ العلاقات الأسرية والدفء للبيوت والعائلات بعد جفاف لم يسبق له مثيل بأمر ربي؟ أنا مَن أفقت الناس على أهمية البحث العلمي، أين المعامل التي يعوزها التكامل وتسودها الأنانية لتحول دون اكتشاف العلاج؟ أيها الناس لا تحسبوني قويًّا؛ كلا كلا فأنا أضعف مما تتخيلون. والله أنا جندٌ صغيرٌ من جنود الله، فما بالكم بجنوده العظام، فالعالم متعطل بسببي على الرغم من ضعفي، أنا مَن كشفت لكم هشاشة ما تسمى بالدول العظمى، وأنها أوهن من بيوت العنكبوت، هل تعلمون أن ما تسببت فيه من رعبٍ للعالم يفوق رعب كل الأسلحة الفتاكة التي اخترعها الإنسان على مر الزمان؟ ربما أتركاكم بعد فترة، حينما يأمرني ربي، ولكن: هل تعلمتم الدرس؟

فقه الأزمة:

اشتمل ديننا الحنيف على منهج مثالي شامل وصالح لكل زمان ومكان، لسلامة الأبدان والنفوس، وعلمنا فقهَ الأزمات لتحقيق النجاة من خلال:

الطمأنينة والسكينة بالتعلق بحبال الله وكثرة ذكره، يقول تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ (الرعد: ٢٨)

أي تسكن وتستأنس بجلال الله فتطمئن،

(٧) د/ محمد فتح الله الزيادي: تأملات في زمن الأزمة، صدى البلد: ٢٧ مارس ٢٠٢٠م

ومن ثم يزول قلقها واضطرابها، هذا وقد وردت هذه الآية الكريمة في سورة الرعد، والرعدُ مخيف، فجاءت الآية لتبعث الأمل والطمأنينة في قلوب الذاكرين.

المحافظة على الصحة، ومقاومة الأمراض، والوقاية قبل المرض، والعلاج بعد المرض، والتحذير من العدوى، والاحتراز والوقاية والعزل الصحي في الأوبئة، يقول ﷺ: «إذَا سَمِعْتُمْ به -أي الطاعون أو الوباء- بأَرْضٍ فلا تَقْدَمُوا عليه، وإذَا وقَعَ بأَرْضٍ وأَنْتُمْ بهَا فلا تَخْرُجُوا فِرَارًا منه»[٨]، بل وسع دائرة الوقاية حتى شملت الحيوان الأعجم، يقول ﷺ: «لا يُورِدَنَّ مُمْرِضٌ علَى مُصِحٍّ»[٩].

الدعوة إلى العلاج الروحي والمعنوي، وزيادة جرعات الأمل في رحمة الله، وإلى التفاؤل وهو ميل أو نزوع نحو النظر إلى الجانب الأفضل للأحداث أو الأحوال، وتوقع أفضل النتائج. والمؤمن دائمًا مقبل على ربه مرتبط بمشيئته. والتفاؤل ينشط أجهزةَ المناعةِ النفسية والجسدية، مما يجعل المرء على جادة الصحة والسلامة والوقاية.

الأخذ بالأسباب والتسليم لله العليم القدير، ونتمثل قول الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلسَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ ٱلۡغَيۡثَ وَيَعۡلَمُ مَا فِي ٱلۡأَرۡحَامِۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسٞ مَّاذَا تَكۡسِبُ غَدٗاۖ وَمَا تَدۡرِي نَفۡسُۢ بِأَيِّ أَرۡضٖ تَمُوتُۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرُۢ﴾ (لقمان: ٣٤)، وقول نبيه ﷺ: «إنَّ روحَ القدُسِ نفثَ في رَوعي أنَّهُ لَن تموتَ نفسٌ حتَّى تستَكمِلَ رزقَها فاتَّقوا اللَّهَ وأجمِلوا في الطَّلَبِ»، بحيث نعيش بهما ويعيشان فينا.

الالتزام بالعلاج الجامع المانع، فعن عقبه ابن عامر الجهني -رضي الله عنه- قال: قلتُ يا رسولَ اللهِ ما النَّجاةُ قال: «أمسِكْ عليكَ لسانَكَ، وليسعْكَ بيتُك، وابكِ على خطيئتِكَ»[١٠]. والحديث يؤكد على التحذير من نشر الشائعات وحرمتها، ويدعو إلى البقاء في المنزل، وديمومة الاستغفار والدعاء. وهنا نحذر من الشائعات فخطورتها تتضاعف في مثل هذه الأزمات، وقلوبنا قبل أجسادنا خلف قادتنا وولاة أمورنا، وطاعتهم إذا كانت واجبة في الأوقات العادية فإنها هنا من أوجب الواجبات، قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ﴾ (النساء: ٥٩)

وكذلك الدعاء فإننا في حاجة ماسة إلى مزيد من الدعاء وطرق أبواب الله الرحيم، فاللهم، إنك تسمع كلامنا، وترى مكاننا، ولا يخفى عليك شيء من أمرنا، وليس لنا ربٌ سواك، نحن البؤساء الفقراء إليك، المستغيثون بك، المستجيرون بعظمتك، الوجلون المشفقون المعترفون إليك بذنوبنا، نسألك يا ربنا مسألة المسكين، ونبتهل إليك ابتهال الذليل، وندعوك دعاء الخائف الضرير، أن ترفع عنَّا وعن البلاد والعباد البلاء والوباء يا رحمن الدنيا والآخرة ورحيمهما.

---

(٨) رواه البخاري، من حديث عبد الرحمن بن عوف -رضي الله عنه- برقم: ٥٧٣٠.
(٩) رواه البخاري، من حديث أبي هريرة -رضي الله عنه- برقم: ٥٧٧١.
(١٠) رواه أحمد في مسنده، برقم: ٢٢٢٣٥.